المناصية والنص السردي

la paratextualité et le texte narratif

الدكتور كواري مبروك

جامعة بشار ـ الجزائر

أما العالم في نفسه فليس إلا خيالاً، وحلماً يجب تأويله لفهم حقيقته

ابن عربي

إن فعل القراءة سواء كان شرحاً أم تفسيراً؛ أم تأويلاً، أو كان سطحياً أو عميقاً، فالقارئ يعيد إنتاج المقرؤ، بمعنى من المعاني، وعلى صورة من الصور[1].فهو موجه نحو الإشارة الدالة للوقوف على أبعادها وتفكيك بنيتها التركيبية والدلالية، انطلاقاً من الدال الماثل أمام القارئ للوصول إلى المدلول المتواري خلفه ؛ ضمن شبكة القرائن والعلاقات الدلالية؛ هذا المدلول الذي هو محور البحث وأساس الاختلاف في الشرح والتفسير، والتعليل، والتأويل.

القراءة فعل معقد يحتاج إلى مهارات تتضافر لفك شفرات النص[2]، وتمكن القارئ من فهم أبعاده الدلالية والجمالية. وهي منذ الأزل محور المعرفة الإنسانية، الدافع إلى البحث عن المعنى وإنتاجه، وأساس التواصل وتبادل التأثير. والقرآن الكريم أول ما نزل منه من آيات تدعو إلى القراءة. (اقرأ باسم ربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم) سورة العلق. هذه الدعوة الصريحة إلى إعمال الفكر، والتدبر في ملكوت الله، دليل على ما لهذا الفعل من تأثير في الخلق. لأن القراءة أساس العلم والمعرفة والرقي. هي قوام السلوك الإنساني المنتج للمعنى، المرتبط بالقصد الذي هو أساس كل القضايا المعرفية[3]... وبإدراك الإشارة الدالة يتولد تنوع المعاني، وينتج الثراء الثقافي الحضاري...

إن القراءة هي عملية استقبال النصوص المكتوبة، هي محاولة شرح وتفسير وتعليل وتحليل وتأويل الإشارة الدالة. والوقوف على أبعادها السيميائية. من هذه الوجهة كانت القراءة المباشرة للنصوص الأدبية، من لحظة الانطباع إلى مرحلة التقنين وإعادة التقنين، إلى مرحلة الافتنان في وضع القواعد والمناهج لقراءة النصوص الإبداعية، والوقوف على مراميها. كان الاختلاف بين القراء، والدارسين عبر مختلف العصور...

فعل القراءة المسلط على النصوص الإبداعية، يخضع لشروط إكراهية داخلية وخارجية[4]، تحد من سطوته، منها خصوصية النص في حد ذاته، نوع الثقافة التي أفرزته، طبيعة المتلقين له، وعصر التلقي هذه الشروط هي أساس القراءة، وهي منبع الاختلاف في الشرح والتفسير، والتعليل والتأويل...

1-الشروط الداخلية (خصوصية النص :)

- طبيعة النص : نص علمي (أحادية المعنى)، نص أدبي (تعدد المعاني)
- نوع النص: شعر، قصة قصيرة، رواية، مسرحية، سيناريو...

2- الشروط الخارجية (ثقافة النص):

- الثقافة المهيمنة
- نوع ثقافة المتلقي
- عصر القراءة

إن اختلاف القراءات، وتنوعها يخضع بالضرورة لهذه الشروط التي تتلونه بلونها. فطبيعة الإشارة الدالة، وشكلها، وثقافة المستقبل، وعصر التقلي مؤشرات تفرز التنوع، والاختلاف في القراءة. فالنص يوجه القراءة، وينتقي أدواتها الإجرائية التي تمارس بها. بدءاً من تماسك الإشارات المشكلة للنص، إلى إطار النص العام، إلى المتلقي نفسه...فالدال يتلون وفق الموقع الذي يحتله في الجملة أولاً، وفي بنية الإشارة اللغوية ثانية، وفي التركيب والسياق النصي ثالثاً.فالموقع يحدد وظيفة الإشارة، والبنية تكشف المعنى، والتركيب يبن الدلالة، والسياق يؤثر في التأويل السيميائي، و يوجه التلقي، ويموقع أفق الانتظار.

إن دراسة نص روائي تفرض على القارئ تحليلاً معيناً في ممارسة فعل القراءة، يختلف عن نص شعري أو مسرحي. لأن النص الشعري من اخص خصوصياته الإنشاد؛ يلقى فيسمع؛ فالصوت وما يرافقه من نبر وهمس، وجهر وموسيقى هو أساس تأثير النص. وهو مجال الدراسة والبحث بالدرجة الأولى.أما النص المسرحي في الأساس عرض يشاهد، فيه حركات وشخوص وأضواء وألوان، وهو مرهون

بفترة زمنية محددة، ومقام خطابي وجمهور. هذه العناصر هي مجال الدراسة. أما النص الروائي فهو منجز للقراءة المنفردة، له شكل وبنية خاصة، وأغف معرفي يحتضن كل ما أتنتجه البشرية، وتنتجه من أشكال تعبير (شخوص أحداث وزمن و تبئير...). هذه الخصوصيات التي يتميز بها كل نوع أدبي تجعل القراءة تختلف، ناهيك عن اختلاف ثقافة القراء عبر العصور

القراءة الموجهة للنص هي قراءة فاحصة لمكوناته، تتنوع بتنوع عناصر فعل القراءة. وهذا التنوع يختص به النص الأدبي، فهو الذي يحمل في طياته هذا الاختلاف. والقارئ في تعامله مع النص ينطلق من الدال الذي يؤول حسب تضاريس النص، لتشكيل دلالة خاصةً بالمتلقي...فالمقاربات النقدية المعاصرة التي بحثت في النصوص الإبداعية، قدمت آليات لممارسة فعل القراءة. فإذا حاولنا تتبع هذه المقاربات نجد أن كل توجه، قدم تقنيات تمكن القارئ من

معرفة تضاريس النص، وما يعتوره من انحرافات. بتحليل إشاراته، والوقوف على أبعدها الدلالية والتداولية... ومن هذه المناهج المعاصرة التي كان لها سطوتها في قراءة النصوص الأدبية نجد البنيوية، والتكوينية، السيميولوجيا، التفكيكية، والتداولية، ونظرية القراءة ونظرية التناص... فكل مذهب نقدي قدم أدواته الإجرائية لقراءة النصوص الإبداعية وتفكيك شفراتها. هذه الأدوات تختلف وتتكامل، ومن هنا كان التباين والاختلاف في قراءة النصوص الإبداعية بين القراء.

نظرية التلقي(نظرية القراءة): اتجاه ما بعد البنيوية، يرفض الشكل الواحد للمعنى، ويقوض مفهوم الملفوظ اللساني كدليل وحيد، أو وسيط وحيد لبناء جمالية النص ومحاورة بنيته. والجمالية التي تنشدها هذه النظرية استمدت أصولها من الفلسفة الظاهراتية التي تجعل الذات مصدرا للفهم. فصارت الذات المتلقية قادرة على إعادة إنتاج النص بواسطة فعل الفهم والإدراك، هذا النص الذي يقاوم فكرة اختزان معنى ما بغض النظر عن كونه سطحياً، أو عميقاً (لأن النص قائم في الأساس على التعددية في المعنى تشكيلاً وتلقياً. وتحليل النص نشاط نقدي)[5] يستند إلى مفاهيم نظرية متنوعة، أما قواعده فهي إجرائية، تهدف إلى تنوع الركائز المنهجية التي يتبناها المحلل، وهو يؤمن بالتعددية والانفتاح و تحاشي القول الفصل. لكن هناك سبب يجعل وجود النقد ضرورياً، هو أن (النقد قادر على الكلام، بينما الفنون

كلها خرساء). نورثروب فراي...يقول ميشال فوكو : (إن من غايات النقد إنطاق المعاني الخرساء النائمة في الكتابات التي يكتبها الكتاب، والأدباء عبر القرون الطوال)[6].لأن النصوص الأدبية تنتمي إلى أشكال التبليغ في مستواها الأرقى. والنقد ينتمي إلى الأيديولوجيات والثقافات، والاتجاهات الفكرية والنظريات المعرفية. والقارئ عند تناوله للنص الأدبي ينطلق من اهتمامات تخصه، وهو بذلك يسعى إلى إثبات غرض ما[7]

القراءة من النشأة إلى التقبل : (سلطة المؤلف، النص، القارئ)

إن قراءة النصوص الأدبية تتم وفق النموذج الثقافي السائد في المجتمع. وتتلون بمفاهيمه الفلسفية والمعرفية، والجمالية الفنية. فمرت بمراحل تجسد هذا الزعم انطلاقً من البحث في خارج النص (المؤلف السياق...) إلى الانكباب على النص (والتقوقع داخله، ونفي كل ما هو خارجه...) إلى البحث في متلقي النص...فكل عصر جسد قراءته :

1. قراءة تنظر إلى النص من خلال سياقاته التاريخية في قوانين الإنشاء و أساليبه وفي ذاتية الأديب و في الوسط الاجتماعي، قراءة النص الأدبي في إطار شروط إنتاجه (نفسية أو اجتماعية أو تاريخية)

2 . قراءة الأثر الأدبي وعزله عن السياقات المساهمة في إنتاجه، قراءة النص الأدبي باعتباره بنية أو نسقاً ونظاماً له قواعده الخاصة، وذلك بالاستناد على اللسانيات الحديثة والمنهج البنيوية...

3. قراءة القارئ و فقط لأن الأديب بجمهوره ألصق، فاهتمت بالنص من حيث هو يقرأ؛ أي قراءة النص؛ باعتباره رسالة أو خطاب من مبدع إلى المتلقي(في إطار نظرية التلقي في النقد المعاصر). و قد تولد هذا النوع من القراءة ؛ عن طريق الحوار التواصل والتراكم الذي حصل بين مختلف المناهج والعلوم الإنسانية، والتفاعل داخل المعرفة البشرية ؛ نظرية التناص التي سأحاول تقديم أهم انجازاتها في تجسيد الاختلاف والتفرد.

القراءة أنواع حسب المنهج المتبع فهناك:

القراءة المحايثة وهي القراء التي تنطلق من النص وتعود إليه، باعتماد أدوات إجرائية تستمدها من المنهج البنيوي وتفرعاته، اللسانيات الأسلوبية السيميولوجيا...

القراءة الأيديولوجية: وهي قراءة إسقاطيه خاضعة لموقف القارئ الإيديولوجي حيث همه منصب على ما يوافق هواه، ويرفض كل ما لا يوافق توجهه

القراءة المعيارية : وهي القراءة التي تنطلق من قوالب جاهزة تفسر بها لإبداع وتعتبر الخروج على هذه القواعد عيب فني على الأديب تحاشيه.

يقول بارت (لا يحظى الأثر الأدبي بالخلود، لأنه يفرض على القراء العددين معنى واحد فيه، وإنما هو يخلد ويستمر، لأنه يقترح على القارئ الواحد معاني عدة في تجدد اللحظات). إن المعنى الأدبي لا يعرف الثبات؛ بل هو في حركة وتطور مطردين، يتجدد كل مرة في كل بنية عمل؛ وذلك بتجدد موضوعه الجمالي تبعا لتغير وتطور شروط تلقيه التاريخية والاجتماعية[8]. وفعل القراءة يجعل النص مفتوحاً قابلاً لإعادة الإنتاج من خلال عمليتي التفسير والتأويل.(لأن العمل الفني لا وجود له إلا حين ينظر ليه)[9]. والنص الأدبي حسب فيليب سولرز يتشكل من ثلاثة مستويات:

طبقة سطحية، وطبقة وسطى، وطبقة عميقة:

- فالطبقة السطحية للنص هي الكتابة(الألفاظ، والجمل، والمقاطع...) أو ما هو مكتوب فعلياً. وهي تقرأُ بوضوح.

- والطبقة الوسطى هي (التناص) أو الجسد المادي للنص، وهو لا يُكتب من جمل أو كلمات، وإنما هو من نصوص، حيث تتقاطع الكتب فيما بينها، وتُحمل إلى نطاق أبعد من حدودها، وذلك داخل النصّ المجمل.

- وأما الطبقة العميقة فهي (الكتابة) أو انفتاح اللغة.

ومجموع هذه العمليات لا يؤسس موضوعاً أدبياً، ولكن أثراً معرفياً. وينتهي سولرز إلى أن النصّ المكتوب هو لا نهائي، لأنه مكون من متتاليات لا تأخذ دلالتها إلا من خلال علاقاتها بالمتلقي. وقارئ النصّ مرغم على أن يصير طرفاً فيهّ. فالقراءة عملية استحضار المغيب، وهذا يقود إلى تخصيب مستمر للمدلول. وبذا فإن تنازع القراءات فيما بينها للنص الأدبي تفضي إلى متتالية لا نهائية من المدلولات. فمنطلق القراءة، ووجود الدال واحد، لكن لا حد لنهاية الرحلة[10]. فكل نص أدبي ينتج ضمن محددات وأطر معينة، في إطار تلق معين من قبل مرسل ومتلق معينين[11]. لأن القارئ يقرأ ما يقرأ، ودائماً عينه على الواقع[12]

فالقراءة الاستكشافية أو الإسقاطية، بمستوياتها التحليلية ومجساتها التأويلية بدءً من اللسانيات إلى البنيوية والأسلوبيات السيميولوجيا والتفكيك، ونظريتي التلقي والتناصية، والتداولية... تطرح رؤية شمولية، تحدَّد جانباً من جوانب النصِّ المكتوب. من هذه الزاوية، هي أداء معرفي، ونشاط ذهني يصاغ حول النص، مسلَّط بقصديه لتقصِّي مساحات نصٍّ مكتوب.هذا التقصِّي محكوم بآليات وعي متوازنة، وبنوايا تخطيطية واضحة، ترسم ملامح الغايات المرجوة من وراء القراءة.

وسواء كانت العملية اكتشاف أو إسقاط، فهي فعل منجز يعتمد مبدأ التحليل والتفكيك، والتأويل والتدوين لملامسة مضمون النص وإظهار جمالياته. هي دورة معرفية متكاملة تؤدي إلى إنتاج نصٍّ جديد يمكن تسميته بنصِّ القراءة.

التناصية : l'intertextualité

نظرية التناص مجال معرفي خصب أسهم في بلورة مفاهيم، و قدم للساحة النقدية آليات لقراءة النصوص الإبداعية تمكن الدارس من فك شفرات النص، ومسك أبعاده الدلالية الجمالية، وتأويلاته السيميائية. التناصية في أبسط تعريف لها هي حضور الآخر في النص. هي كل ما يجعل نصاً يدخل في علاقة حوارية مع نصوص أخرى، ويتجلى في مختلف أنواع العلاقات الظاهرة، و لخفية التي يقيمها

النص مع غيره من النصوص[13]. والقراءة التي تعتمد التحليل التناصي، قراءة خصبة للغاية بالمقارنة مع القراءة المحايثة الخالصة، لكونها تقوم بإدماج النص الفردي في الشبكة النصية المرتبط بها. التي تعمل القراءة المحايثة على عزله عنها، بشكل مصطنع "[14]. التناصية تتميز بالشمول والعموم فتخترق حقولاً معرفية خارج حقل الأدب، بحيث إن أي نص لا يمكن أن يخلو منها، فهي قدر كل نص (بارث).هذه الهيمنة والحضور الدائم دفعت لوران جيني L.Jenny إلى القول :" خارج التناص يغدو العمل الأدبي ببساطة غير قابل للإدراك"[15]. وحدد العلاقات التناصية في ثلاثة علاقات هي[16] :

1- علاقة تحقق حيث لا يتحقق إلا التكرار.

2- علاقة تحويل حيث لا تتحقق إلا تغييرات بسيطة على النصوص السابقة.

3- علاقة خرق حيث تعدل النصوص اللاحقة عن النصوص السابقة.

فالكاتب مهما كان موقعه، فإنه يكتب نصه تحت تأثير الهوس الذي يمارسه النص السابق كعقدة أوديبية تدفعه إلى السير على منوال النص الأول، أو التمرد عليه...

أنواع التعالي النصي[17]: (المتفاعلات، التداخل، المستنسخات، ...) خمسة أنواع أساسية هي:

1 - التناصية intertextualité : وهو حضور نص في نص آخر بشكل جلي أو مضمر (الاستشهاد citation التلميح allusion، السرقة وما شابه ذلك).

2 - الميتانصية metatextualité : وهو علاقة التعليق التي تربط نصاً بآخر يتحدث عنه دون أن يذكره أحياناً.

3 - التجاوزالنصي Hyper textualité ويكمن في العلاقة التي تجمع النص (ب) كنص لاحق (Hypertexte) بالنص (أ) كنص سابق (Hypo texte) وهي علاقة تقليد أو محاكاة أو تحويل.

4 - المعمارية النصية Archi textualité: وهو النمط الأكثر تجريداً وتضمناً حيث يشير إلى علاقة النص بمجموع الخصائص العامة أو المتعالية للجنس الذي ينتمي إليه، إنه علاقة بكماء، لا تفصح عنها إلا إشارات مناصية، وتتصل بالنوع (شعر، رواية مسرحية) على اعتبار أن التمييز النوعي يتحكم في توجيه أفق انتظار القارئ، ومن ثم في استقباله للعمل الأدبي

مراجع البحث وإحالاته:

1- عثمان الميلود : شعري تودوروف.ص:38.ط1990 دار عيون البيضاء

2- Dominique Maingueneau. Pragmatique pour discours littéraire p.36.ed.NATHAN 2001

3- سعيد بنكراد.السيميائيات ص. 164

4-: ميشال فوكو : نظام الخطاب.مجلة الكرمل العدد101 سنة 1983

5- حميد سمير:النص وتفاعل المتلقي.ص :19 وما بعد:

6- عبد الملك مرتاض : في نظرية النقد ص 29

7- جماعة من الباحثين ك المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية.ص 19. دار توبقال.ط1/1989

8 –حميد سمير:النص وتفاعل المتلقي.ص :19

9-سارتر.ما الأدب..ت.غنيمي هلال.ص. 55

10-عبد الله إبراهيم : التفكيك الأصول والمقولات.ص:45/44

11- محمد مفتاح : مجهول البيان :ص :112/111

12- كامل الخطيب : الرواية والواقع.ص:14

13 - David Fontaine, la poétique, Op. Cit P 114

14 - J.M. Schaeffer : du texte au genre théorie des genres oeuvres collectives éd du 1986 P 194

15- سعيد يقطين، الرواية والتراث السردي المركز الثقافي العربي ط 1 أغسطس 1992 ص 10

16- م.س :94

17 – G.Genette, palimpsestes, ed seuil 1983 P 10